

النظرية الاجتماعية و فكرة النموذج

أ. عباد أحمد
قسم علم الاجتماع
كلية الآداب

والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان

الملخص: كان لزاما على علم الاجتماع لتأسس بوصفه علما نظريا ألا يبقى مجرد أحكام و آراء معيارية تعبر عن تجارب شخصية، بل لا بد

أن تتطور هذه الأحكام على شكل نظريات، من هذه الزاوية كان علم الاجتماع في حاجة إلى نظرية، لكن النظرية الاجتماعية و نظرا لحدثة علم الاجتماع مقارنة بالاختصاصات المعرفية الأخرى، و نظرا كذلك لم تتمكن من أن تتأسس بشكل منفصل، بل قامت على - النظرية الاجتماعية - لطبيعة موضوع الدراسة، فإنها أسس نظريات أخرى في اختصاصات معرفية أخرى، للدرجة أن هذه الأخيرة اتخذت كمنادج تقوم عليها النظرية الاجتماعية: فمن نموذج العلوم الطبيعية إلى نموذج الظاهرة اللغوية، إلى نموذج الظاهرة العضوية، و غيرها من النماذج المنبثقة عن عملية المماثلة التي أخذت بها الدراسات الاجتماعية المعاصرة.

مقدمة:

منذ فجر التاريخ انشغل الإنسان بتفسير و تأمل و تبرير ما يحيط به من ظواهر. إلا أن هذه الظواهر تتحد في نوعين، ظواهر تمس المحيط الطبيعي أي ظواهر طبيعية، و ظواهر تمس المجتمع، فهي ظواهر اجتماعية. والشاهد التاريخي يؤكد أن الإنسان قطع أشواطا بالغة و متطورة في فهمه و دراسته للظواهر الطبيعية مقارنة بالظواهر الاجتماعية، التي و إلى عهد ليس بعيد كان الإنسان لازال في محاولة فهمه لها يمشي بخطى لا تعكس ثقلمه في فهم الظواهر الطبيعية، و لعل مبرر ذلك هو أن الطبيعة تفهم من الخارج بينما المجتمع يدرس من الداخل، هنا وناهيك عن كون الظواهر الطبيعية محدودة و ملموسة يمكن قياسها، في حين ظواهر المجتمع يصعب تحديدها و إخضاعها لقياس دقيق، ينضاف إلى ذلك أن ظواهر الطبيعة مترابطة مع بعضها البعض الأمر الذي يسهل علينا إخضاعها لمنطق يحكمها، و لعل هنا ما أشار إليه فيلسوف الإغريق "أرسطو" حينما قال: "الطبيعة تخضع لمبدأ الختمية" و في موضع آخر نسجل قوله كذلك: "الطبيعة لا تعرف الوثبات" بينما يتعلم اكتشاف أو الاهتداء إلى هذا الارتباط، و هذا المنطق الذي يحكم الحياة الاجتماعية، و ربما يكون هنا تفصيلا لما قاله الفيلسوف و المنطقي "ريكور": "القلب منطق لا يعرفه العقل"، لكل هذه الأسباب و غيرها تقدم الإنسان كثيرا في معرفة الظواهر الطبيعية للدرجة، أصبحت هذه المعرفة العلمية

المشغلة بدراسة ظواهر الطبيعة و المتقلبة أيضا نمودجا يفرض نفسه بقوة أمام تلك الدراسة المهمة بظواهر المجتمع. و المحفز في ذلك هو محاولة إيصال العلوم الاجتماعية إلى درجة ما هي عليه العلوم الطبيعية.

و فكرة النموذج التي تعني أولا الاستعارة و المماثلة لم تمس المنهج و أدوات البحث فقط بل مست النظرية الاجتماعية بكاملها. فما دلائل وجود نماذج فكرية على أساسها بنيت النظرية الاجتماعية؟

I. "أغست كونت" و المنهج العلمي:

لا يخفى على دارس تاريخ الفكر الاجتماعي أن "أغست كونت" عند الكثير من المؤرخين يعتبر النقطة المحورية التي عند مستوياتها انتقلت الدراسات الاجتماعية من كونها فلسفات اجتماعية كما كانت عليه عند فلاسفة الإغريق أمثال "أفلاطون" و ما كتبه في "جمهوريته الفاضلة" و "أرسطو" و عند فلاسفة الإسلام أمثال "أبو نصر الفارابي" و "مدنيته الفاضلة" وغيره "كابن طفيل" و "ابن مسكويه" و "الماوردي" و كذلك عند القديس "أوغسطين" و "مدينة الله" و كنا القديس "توما الاكوييني" وغيرهم من الفلاسفة الذين اهتموا بالجانب الاجتماعي للإنسان، لكن كل محاولاتهم بقيت مجرد فلسفات مبنية على التأمل و الاستنتاج دون أن ترقى إلى مستوى العلم، لكن بعد مجيء "أوغست كونت" أريد للدراسات الاجتماعية أن تتحول من كونها فلسفة اجتماعية إلى علم اجتماع، و هذا بدلا بما يعرف عند "أ. كونت" بقانون الحالات الثلاث، و خلاصة موقفه تتحدد من خلال مقولته الشهيرة: "لدينا الآن فيزياء سماوية، و فيزياء أرضية ميكانيكية، و فيزياء نباتية، و فيزياء حيوانية و ما زلنا بحاجة إلى نوع آخر و أخير من الفيزياء هي الفيزياء الاجتماعية، ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعا لدراسته باعتبار هذه الظواهر من نفس روح الظواهر الفلكية و الطبيعية، و الكيميائية، و الفيسيولوجية من حيث كونها خاضعة للقوانين الطبيعية الثابتة"⁽¹⁾.

و في هذه المقولة إشارة واضحة من "أ. كونت" إلى ضرورة معاملة الظاهرة الاجتماعية بنفس ما تعامل به الظواهر الفلكية و الطبيعية و الكيماوية و الفيسيولوجية، كما أن هذه المقولة تضع أساسا فكريا ينبغي أن يتقيد به فكر عالم الاجتماع ألا و هو التقيد بنموذج العلوم الطبيعية و إلحاق الظواهر الاجتماعية بهذا النموذج و ذلك على أسس مماثلة للظاهرة الاجتماعية بالظاهرة الطبيعية.

II. "إميل دوركايم" و شيئية الظاهرة الاجتماعية:

أعمال "إميل دوركايم" هي الأخرى لا تقل أهمية عن أعمال "أ. كونت" بل الأكثر من ذلك أن أعمال "دوركايم" تعتبر أرضية للكثير من الدراسات السوسيولوجية المتأخرة، إذ اثابت أن بعض النظريات الاجتماعية و هي كثيرة، تعود إلى الأخذ من أعمال "دوركايم" و من أمثلة ذلك ما نجد عليه أحد أكبر الاتجاهات المسيطرة في علم الاجتماع المعاصر ألا و هي الوظيفية.

إلا أن المتميز في أعمال "إميل دوركايم" هو أنه خصص جزءا كبيرا من أعماله لدراسة الأسس المنهجية و المنطقية التي يجب أن تقوم عليها الدراسة الاجتماعية لدرجة أنه خصص لذلك كتاب شهيرا له و هو "قواعد المنهج"

و الذي يحدد فيه أهم القواعد التي ينبغي التقيد بها في دراسة الظاهرة الاجتماعية، بدءاً بمحاولة تحديد الظاهرة الاجتماعية إلى تحديد القواعد الخاصة بملاحظة الظاهرة الاجتماعية ثم القواعد الخاصة بالفرقة بين الظاهرة الاجتماعية السلمية والظاهرة الاجتماعية المعتلة ثم القواعد الخاصة بتحديد النماذج الاجتماعية ثم القواعد الخاصة بتفسير الظواهر الاجتماعية و أخيراً القواعد الخاصة بإقامة البراهين.

و لعل أهم قاعدة يركز عليها "إميل دوركلم" في تناول الظاهرة الاجتماعية هي الإيمان بوجود حقيقة اجتماعية فعلية مستقلة عن الأفراد، و ذلك حتى يتسنى لنا محاولة فهم المجتمع من الخارج، إذ تغلو الظاهرة الاجتماعية عند "إميل دوركلم" في منأى عن ما قد نضيفه إليها من ذاتيتنا و مشاعرنا و تعاطفنا بل لابد من أن نعاملها و كأنها أشبه بشيء منفصل عن الذات و خارج عنها، و ذلك كما هي عليه الظاهرة الطبيعية، و هذا ما يشير إليه في قوله: "إن أولى هذه القواعد و أكثرها أهمية هي القاعدة التالية: يجب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء"².

و لو استطقنا قاعدة "دوركلم" التي تنضاف إلى قاعدتين أخريتين و هما رفض الأفكار المسبقة، و تفسير الاجتماعي بما هو اجتماعي، لو جدنا كذلك "دوركلم" يؤمن بنموذج هو الآخر و يحاول أن يلحق به الظاهرة الاجتماعية، و هذا ثابت من خلال ما دعي إليه من ضرورة معاملة الظاهرة الاجتماعية على أنها أشياء. أي يمثل ما نعامل به الظواهر الطبيعية و التي هي عند "دوركلم" نموذجاً.

III. "هربرت سبنسر" و نموذج الظاهرة العضوية:

يحتل "هربرت سبنسر" مكانة هامة في تطور النظريات الاجتماعية وقد شغل هذه المنزلة بمحاولته المنظمة لإقامة علم الاجتماع على أسس علمية حتى يحقق علميته و يحدث انفصالاً واضحاً عن الفلسفة، إلا "سبنسر" بمحاولاته هاته لم يكن عالم اجتماع فحسب بل كان كذلك فيلسوفاً يبحث في أهم الأسس و الأبنية المنطقية التي يجب أن يقوم عليها علم الاجتماع، و الأكبر من ذلك أن "سبنسر" لم يكن دوغماتياً يجد انخيازاً كلياً لا تجاهه و منظموته الفكرية بل كان عمله تأليفياً تركيبياً للدرجة كما يقال أنه استطاع أن يؤلف بين التيارات الرئيسية للمفكر الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر.

و إسهامات "سبنسر" في تأسيس علم الاجتماع كثيرة، غير أن المحوري و المضيء منها إسهامين أساسيين و هما:

1. المعالجة السيوسيرلوجية للتاريخ: أين يؤكد "سبنسر" علم أخذ التاريخ كوحداث أو أحداث مية بل لابد من ربط هذه الأحداث التاريخية مع تطور المجتمع، إلى درجة جعل وضعية المجتمع و درجة تطوره هو أسس فهم الأحداث التاريخية، و هذا واضح من خلال قوله: "أن الشيء الوحيد الذي يعطينا من دراسة التاريخ، هو معرفة التاريخ الطبيعي للمجتمع إذ أننا نريد أن نلم بكل الوقائع التي تساعدنا على فهم تطور الأمم و كيفية تنظيمها"³.

2. المماثلة بين المجتمع و الكائن العضوي : إذ لضرورة منهجية يميل "سينسر" إلى إقامة مماثلة بين المجتمع و الكائن العضوي و هذا في إطار اعتقاده أن المجتمع بناء يحتوى على مجموعة من العناصر التي يوجد بينها تساند و تبادل وظيفي، و الأسس الثاني للمماثلة في اعتقاد "سينسر" هو أن كل من المجتمع و الكائن العضوي يشهد عملية نمو و زيادة في الحجم و التطور إلا أن فكرة المماثلة عند "سينسر" لم تقلد من الناحية المنهجية فحسب بل كانت أساسا محوريا لإقامة نظريته التطورية و التي من خلالها يري أن الظواهر الطبيعية و حتى الظواهر النفسية و الاجتماعية تتطور و تتغير من المتجانس إلى آلا متجانس، و من حالة عدم التماسك إلى حالة التماسك، و من البسيط إلى المركب، و من عدم التمايز إلى التمايز، و تعدد البناءات و الوظائف، و تخصصها.

و باستنتاج لما وراء نظرية التطور "السينسر" نسجل أن حتى هو الآخر لم يتخلص من فكرة النموذج و المماثلة و الذي يحضر في أعمال "سينسر" هو نموذج العلوم الطبيعية.

IV. الاتجاه الوظيفي:

تعتبر الوظيفة أكثر اتجاهات الفكر الاجتماعي المعاصر شيوعا. و هي تعبر بجنوره إلى الرواد المؤسس للفكر الاجتماعي أمثال أ. كونت و "دور كليم" و "سينسر" و غيرهم، كما أنها تعتبر محطة فكرية تنتمي فيها الدراسات الاثروبولوجية و الأخرى الاجتماعية، و قد مثل الوظيفة الاثروبولوجية رواد كثرون أمثال "بروكريلا و مالنو فسكي" و "راد كليف بروان" و "روبرت ميرتون" و "ماريوليفي" و "تالكوت بارسوتر" و "ونيل سملزر" و غيرهم كثير.

و ترعم الوظيفة أن أفعالنا و تصرفاتنا ليست عشوائية و إنما هي خاضعة لتنظيم بناء محدد و تؤدي وظائف محددة في الحياة الاجتماعية، و على هذا الأسس نجد أنفسنا أمام اعتقاد من خلاله يتحول المجتمع إلى نسق مؤلف من مجموعة نظم اجتماعية و أنماط محددة، إذ النسق بناء يتكون من مجموعة من العناصر التي هي الأخرى تؤدي وظيفة لا تفهم إلى من خلال النسق الذي تنتمي إليه.

فمع الوظيفة يحضر مصطلح "الوظيفة" و "البناء الاجتماعي" و "النسق الاجتماعي" و هي مصطلحات لو توقعنا عند شرحها لتأكد لنا أن مصدرها اعتقاد يجعل من المجتمع أشبه ما يكون بكائن عضوي، و هنا تطرح فكرة النموذج و المماثلة بين الظاهرة الاجتماعية و الظاهرة العضوية.

الخلاصة:

من خلال ما ذكر يبيت جليا أن النظرية الاجتماعية في تطورها كانت دائما تنقيد بنموذج معين، و كان النموذج يطرح لضرورة منهجية أي لتحديد منهج الدراسة، كما أنه كان مع جميع النظريات الاجتماعية يحدد البني المنطقية للنظرية الاجتماعية. و النموذج ذاته كان في كل الأحوال تغذية مماثلة تقام بين الظاهرة الاجتماعية و ظواهر أخرى، فقد تكون مماثلة بين الاجتماعية و الظاهرة الطبيعية أو مماثلة بين الظاهرة الاجتماعية و الظاهرة العضوية أو مماثلة بين الظاهرة الاجتماعية و الظاهرة اللغوية كما قام عليه الاتجاه البنوي، أين تصبح جميع عناصر الحياة الاجتماعية مجرد

رموز شأنها شأن ما يؤلف الظاهرة اللغوية، أو مماثلة بين المجتمع و شيء آخر كان يكون أشبه بمحادثة كما أعتقده رواد فكر التفاعل الرمزي⁴، وقد يكون أشبه بمسرحية تمثيلية كما أعتقده رواد فكر الدور الاجتماعي⁵.

فالنظرية الاجتماعية خاصة في بداياتها الأولى كانت ودية للاستعمارية و المماثلة إذ يقول "إيان كريب":
"تقوم النظرية في تحليلها للمجتمع بتحديد البنى الأساسية للعلاقات الاجتماعية، و الخطوة الأولى نحو ذلك هي استخدام التشبيه و المجاز، فالمجتمع يشبه شيئاً آخر. و نستطيع أن نجد سلسلة من الاستعارات و التشبيهات في جميع أنواع النظريات الاجتماعية: إذ شبه المجتمع بالكائن الحي في بعض الأحيان، و تستخدم الماركسية استعمار البناء لتوضيح تركيب المجتمع، فتصوره على أنه يتكون من بنية تحتية و فوقية، و تشبه التفاعلية الرمزية المجتمع بالمحادثة".⁶

و أخير و ليس أخيراً فهل النموذج هو ما تقتات منه النظرية الاجتماعية أم أن ذلك فقط من قبيل ما تفرضه

البداية؟

المراجع

1. د. محمد علي محمد "تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة"
2. دار المعرفة الجامعية- الاسكندرية. سنة 1986 ص 90.
3. دوركليم: "قواعد المنهج في علم الاجتماع". المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. لارغية. الجزائر 1990- ص 59.
4. د. محمد علي محمد. نفس المرجع. ص 153.
5. لين كريب: "النظرية الاجتماعية من يرسونز إلى هابرماس" ترجمة: د. محمد حسين غلوم. سلسلة علم لمعرفة عدد 244 لكويت. 1999. ص: 129.
5. د. معن خليل عمر: نقد الفكر الاجتماعي المعاصر. مطبعة لنجاح. لدار البيضاء المغرب. 1978. طبعة الأولى ص 88.
6. لين كريب: نفس المرجع ص 46.